عملية قصف مفاعل ديمونة الإسرائيلي

مهمة كادت أن تُغير التاريخ لم تنجز

بعد ظهيرة أحد الأيام الصيفية شديدة القيظ عام ١٩٧٩؛ انتهت فترة الطيران والتدريب الاعتيادي في سرب المقاتلات القاصفة نوع سوخوي ٢٢، مُتغيرة الجناح الروسية الصنع، الذي كان يتواجد في قاعدة تموز الجوية (الحبانية) حيث كنت أعمل، أخذ جميع أفراد طاقم الطيران من طيارين ومهندسين وفنيين استراحة الغداء وتوجهوا بعد ذلك إلى دور استراحتهم.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى تمَّ استدعاء جميع الطيارين والمهندسين على عجل من غرفهم إلى مقر سرب الطيران ٤٤، كما استدعي المراتب الفنيون إلى وكر الطائرات، أسرع الجميع للالتحاق بوحدتهم ولم يعلم أحد سِر هذا الإنذار المُفاجئ.

دخل جميع الضباط إلى مقر السرب ووجدوا قائد السرب آنذاك المقدم الركن الطيار (غ. ك)، الذي عقد على فوره اجتماعًا على قدر كبير من الأهمية والسرية لضباط السرب، وأبلغهم بصدور الأوامر من القيادة العليا إلى السرب لتنفيذ مهمة جوية غاية في الأهمية، وكانت الخطة تقضي بالتهيؤ الكامل لإعادة تموضع طائرات السرب بأكمله إلى قاعدة قريبة من إسرائيل، ومن ثم تنفيذ عملية قصف مفاعل ديمونة النووي الإسرائيلي الذي يقبع في قلب صحراء النقب.

جدران مقر السرب ٤٤ كانت قبل عام ١٩٧٩ تعجُ بصور كبيرة للنساء الفاتنات، حتى إن بعضهن ظهرن شبه عاريات، ولكن بعدما حدثت الثورة الإسلامية في إيران حتى تغير الوضع تمامًا، إذ تمَّ إزالة هذه الصور من

الجدران، وكذلك أخذ بعض الطيارين الذين كانوا يعاقرون الخمر بشراهة ويتفاخرون بمرافقة النساء؛ بترك كل ما يتعلق بحياة الدنيا والتوجه نحو التَعبد والدين.

إن موجة التدين أخذت تتوسع وتزداد، بحيث أصبح تأثيرها واضح على البعض، الذي أخذ يحتسي الخمر بالخفاء خوفًا أن يكتشفهم الآخرون، وكانت غرفتي شاهد على هذا، كانت السلطات وقيادة القاعدة على علم بما يجري، إلا إنها لم تستطع فعل شيء، ذُهل جميع الضباط من شدة المفاجأة وخطورتها، إلا أنهم أبدوا حماسة واستعداد كاملين لتنفيذ المهمة كما خُطط لها حرفيًا.

تم تحديد خطة الهجوم ومراحلها والقائمين عليها، وتسمية المهندسين والفنيين الذين سيتحركون في الرتل الأرضي لاستقبال الطائرات المُغيرة في المطار الجديد – ولم أكن من ضمنهم، لالتحاقي حديثًا بالسرب – كما صدرت الأوامر لتحميل الطائرات فورًا بخزانات وقود إضافية كبيرة مع حمولة قصوى من القنابل.

هرع الجميع كخلية نحل تمَّ تحريكها توًا إلى تنفيذ العملية بهمة عالية في ظل حرارة الجو القاسية، حيث كانت الشمس الحارقة تُسقط أشعتها عمودية غير مُبالية على رؤوس العاملين، معدن الطائرات كان ساخنًا جدًا، ما أحدث صعوبة على العاملين في عملهم أثناء لمسهم سطح الطائرات، إلا أنهم رغم ذلك استطاعوا وبسرعة كبيرة تجهيز جميع طائرات السرب بالحمولة المطلوبة حسب الأوامر، وأصبحت الطائرات وطياريها على أهبة الاستعداد لتنفيذ مهمة قصف مفاعل ديمونة النووي الإسرائيلي، والذي يبعد مئات الكيلومترات عن بغداد.

قام مهندسوا السرب والذين تمَّ تسميتهم للتحرك ضمن الرتل الهندسي الأرضي بتهيئة جميع المستلزمات من أدوات وعدد ومهمات أرضية، وكذلك عجلات إدامة وتشغيل وفحص الطائرات وجعلها موضع الجهوزية الكاملة.

أخذ طيارو السرب جميعًا بدراسة خرائط منطقة الطيران وتضاريسها، وخط سير طائراتهم الأكثر أمنًا للوصول إلى أهدافها، دراسة جميع الاحتمالات الواردة التي يمكن أن تُعيق إنجاز العملية المهمة، وبذلك أصبح الجميع على أهبة الاستعداد لتنفيذ أعقد وأخطر عملية جوية يقوم بها سلاح الجو العراقي ضد هدف حساس جدًا؛ ألا وهو المفاعل النووي الإسرائيلي ديمونة.

انتظر الجميع بحذر شديد الأوامر العسكرية العليا في لحظة التنفيذ والتحليق في سماء مفاعل ديمونة، وزمان تحرك الرتل الهندسي الأرضي، ولم تصدر الأوامر، أصبح هاجس الجميع هو استلام الأوامر والتنفيذ ولكنها تأخرت، الطيارون والمهندسون لا يستطيعوا تنفيذ منهاج التدريبي اليومي المعتاد كون الطائرات مُحملة وفي وضع استعداد قصوى بانتظار الأوامر العليا.

مرت أيام عديدة والجميع في ترقب مُمل ولم يستلم المنفذون أي إشارة بالتحرك، الجميع في وضع خمول تام، إذ يمر الوقت ثقيلاً وبطيئًا دون عمل أي شيء نافع، تساءل الجميع في سِرهم متى سيتم تنفيذ العملية التي ستكون بمثابة صفعة قوية لإسرائيل الطاغية على شعب فلسطين، والمُتعالية على جميع شعوب الأرض، والتي ستحدث بالتأكيد صدمة كبيرة لها وللعالم بأسره، انتظر الطيارون والمهندسون أكثر فأكثر، سأموا الانتظار حتى تلاشت أحلامهم ويأسوا تمامًا وماتت آمالهم بالكامل.

الأوامر بتنفيذ علمية قصف المفاعل الإسرائيلي لم تصدر إطلاقًا، ويبدو إن القيادة السياسية والعسكرية للبلد قد قررت إلغاء تنفيذ هذه العملية الخطرة خوفًا من ردود أفعال إسرائيل القاسية، والتي كان يُمكن أن ترد على صدام بالضربة النووية، وكذلك تحسبًا من ردود أفعال الدول الغربية الداعمة لإسرائيل أو حتى بسبب الخوف من تعرض مملكة الأردن المُجاورة للإشعاعات النووية في حال حدوث تسرب نووي إثر قصف المفاعل.

بعد حين صدرت الأوامر لمنتسبي السرب بإزالة حمولة الطائرات وخزانات وقودها الإضافية، والاستمرار بواجبات التدريب العادية للسرب، وسار كل شيء في السرب على حاله الأول دون حماس... لا يزال هذا الموضوع يكتنفه الكثير من الغموض ولم يفك أحد طلاسم وسِر هذه العملية الجوية الحاسمة التي لم ترَ النور إطلاقًا.

لم يتم التطرق يومًا إلى هذا الموضوع بتاتًا لا في الأوساط العراقية سواء داخل الجيش، أو في مضمار السياسة، كما لم تتناولها وسائل الدعاية العالمية كما تعودنا، وكذلك لم تتلقفها أقلام الصحفيين الجرئيين العاشقين للقصص المشوقة التي يلفها الغموض والسرية، وبقيت عملية ضرب مفاعل ديمونة النووي تطويها جدران السرية والضباب.

إنَّ من غير المُستبعد تمامًا أنه قد تمَّ تسريب معلومات هذه العملية الخطيرة عبر منافذ التجسس المتعددة إلى جهة أخرى ووصلت إسرائيل، مما حدا بالأخيرة إلى أن تشعر بجدية بالغة إلى أنّ وجودها ومصير شعبها يتعرضان إلى خطر كبير بتوفر نوايا شريرة مُبيتة ضدهم من قبل العراق وصدام، وأن أمنها القومي كان على المحك، لذلك استعدت إسرائيل جيدًا وهيأت جميع مستلزمات وسبل الرد المناسب، وقامت لاحقًا بالرد عليها وبالطريقة نفسها.

كان الرئيس العراقي صدام حسين واستنادًا إلى عقيدته المنبثقة من فكر حزب البعث العربي الاشتراكي التي تدعو إلى ضرورة وحدة الأمة العربية؛ ينادي دومًا بضرورة العمل على حرية الشعب الفلسطيني، وإزالة إسرائيل من الوجود، وتحرير فلسطين من احتلالهم الغاشم، كما أن صدام امتلك جميع مقومات تنفيذ سياسته، وتتمثل في الاقتصاد المليارى القوي، وتوفر النفط والغاز، وأنشأ سلسلة علاقات قوية وجدية مع الكثير من الدول العربية والغربية، وبدأ ببناء جيش حديث قوي، ولا يخفى على أحد سعيه الحثيث لامتلاك القوة النووية، حيث استطاع صدام الحصول على مفاعل نووي فرنسي لأغراض

البحث والطاقة النووية السلمية، ولكنه يبقى بالأخير تقدم نووي ملحوظ وغير مقبول من جانب إسرائيل.

إنّ إسرائيل شعرت بخطر كبير من سياسة صدام واعتبرته العدو الأول لما يمتلكه من فكر مُعادي وقدرة هائلة لتحقيقه، لذا سعت بكل جهدها إلى تطوير قدراتها العسكرية والاستخبارية التي تمكنها من التفوق الدائم عليه وتأمين السيادة العسكرية المُطلقة على المنطقة.

بعد ثلاث سنوات من التحضير الحثيث للقيادة الإسرائيلية والتدريب العالي والتهيئة النفسية للكادر الجوي، وبالأخص الطيارين، وقبيل الساعة السادسة مساء يوم الأحد المصادف السابع من حزيران صيف عام ١٩٨١؛ حلق سرب من الطائرات القاذفة إف١٦ والمقاتلة إف ١٥ الإسرائيلية الأمريكية الصنع لمدة دقيقتين كاملتين حاسمتين، فوق سماء العاصمة العراقية الهادئة بغداد، مُستهدفة مفاعل تموز النووي العراقي، مُلقية بدقة مُتناهية ستة عشر قنبلة دمرت قلب مفاعل تموز النووي بشكل كامل، دون أن تجعل مبناه ينهار كليًا، نَجم عن كُل هذه العملية الاستراتيجية قتل عشر ضحايا عراقيين، وخبير فرنسي واحد، وكان نتيجة إصابتهم من قبل المضادات الأرضية العراقية.

هذه الضربة الجوية الإسرائيلية كانت مُفاجأة صادمة كبرى للرئيس العراقي صدام حسين، أصابته في الصميم، وأثبتت قصور كبير في فاعلية دفاعاته الجوية، وبذلك بدا الأمر وكأن صدام والعراق والعالم بأسره قد أخذوا على حين غرة.

أتذكر هذه اللحظات الحاسمة جيدًا حيث كنت أزور بعض صاغة الذهب من أقاربي في شارع النهر الشهير الذي يقع في قلب العاصمة العراقية حينها، أطلقت صفارات الإنذار تحذيرًا من غارة جوية، وبدأت المقاومات الجوية العراقية بإطلاق وابل كثيف من الإطلاقات النارية في السماء رأيتها بأم عيني، ولكنها لم تُسقط أي طائرة معادية، عادت جميع الطائرات الإسرائيلية إلى

قاعدتها الجوية السرية الواقعة في قلب صحراء سيناء التي كانت تخضع للسيادة الإسرائيلية آنذاك بسلام.

الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية كان قد رأى بعينيه ومن على يختهِ أثناء فترة استجمامه؛ الطائرات الإسرائيلية وهي تحلق على ارتفاعات منخفضة مُتجهة شرقًا، وقال في سرهِ إنهم يتجهون نحو أخواتنا، ثم اتصل للإبلاغ عن الغارة.

الغير معقول كُليًا أن القوات العراقية ودفاعاتها الجوية التي يُفترض أن تكون متأهبة دومًا أثناء حربها مع إيران لم تفعل أي شيء، ولم تُطلق أية من صواريخها المضادة للطائرات من نوع سام روسية الصنع، كما أنَّ الأغرب من ذلك كُله أنه لم تكن هناك أية طائرات مقاتلة عراقية تجوب سماء بغداد وتحميه من الطائرات المُعادية، وهذا ما أدهش الطيارين الإسرائيليين حيث توقعوا أنهم سيلقون مقاومة عنيفة في بغداد، إلا أنهم استطاعوا إنجاز مُهمتهم الخطرة بكل يُسر، وعمليًا دون مقاومة تذكر.

لم يستطع الرئيس صدام حسين تَحمُل هذه الضربة التي أتته من خلف ظهره، أي من الجهة الغربية لبلده، في الوقت الذي كان اهتمامه واهتمام العراق ينصب نحو الحدود الشرقية، ولم يستوعب صدام أيضًا تدمير إسرائيل لأحد أهم رموز العراق وكبرياءه الشخصي ألا هو مفاعل تموز السلمي، ولذلك ظلّ موضوع الثأر من إسرائيل حاضر في خُلدِ صدام بقوة.

لم تهدأ حفيظة الرئيس صدام إطلاقًا لفعلة إسرائيل القاسية هذه، وظَلّ يضمر لها العداء، ويبدو أنه قد كتم غضبه على مضض وقاسى كثيرًا ولم يجرؤ على اتخاذ ردة فعل مباشرة لعدم توفر الظروف المناسبة لانشغاله بحربه مع إيران، ولكنه لم ينسَ ولم يستكن وسيأتي رده حاسمًا في وقتٍ لاحق ومناسب.

ولقد جاء الرد ولو بعد حين طويل، وتحديدًا في عام ١٩٩١، وإبان حرب الخليج الثانية أو عاصفة الصحراء حين انقضت جيوش ٣٤ دولة بقيادة الولايات المتحدة الأميريكة على العراق، ضمن عملية تحرير الكويت، فما كان من الرئيس صدام وبهدف خلط أوراق المعركة، وعن طريق محاولة جر إسرائيل إلى الحرب الذي يمكن أن يُثير حفيظة الشعب العربي، ويؤدي إلى تفكيك التحالف؛ إلا أن ينفذ عملية ثأرية ذكية، حينما أطلق ٣٩ صاروخ بعيدة المدى من نوع سكود الروسية الصنع، تمَّ تطويرها على أيدي الخبراء العراقيين في بغداد، ضد أهداف مُنتخبة في قلب إسرائيل، وبذلك يكون قد وفى صدام بوعده لنفسه في الثأر من إسرائيل لضربها مفاعل تموز السلمي رغم أنها لم تكون مُدمرة كما حسب.

إن عملية قصف المفاعل النووي الإسرائيلي والتي كادت أن تكون مُوازية بحجم أحداث الحادي عشر من سبتمبر لو كُتِبَ لها النجاح؛ لكان لها أن تقلب موازين العالم رأسًا على عقب وتُغير مجرى التاريخ، ولكانت قد أحدثت تغييرات دولية كبيرة، وارتدادات إقليمية أكبر.